سلطة المتلقي في الخطاب القرآني

Dominance of the recipient in the Quranic discourse

الأستاذ عبد الناصر مشري: أستاذ محاضر "أ"

جامعة قاصدي مرباح – ورقلة (الجزائر)

مخبر التراث اللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري

nacermechri17@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019/12/20	2019/12/24	2020/01/05

الملخص:

يستهدف هذا البحث الوقوف على جانب من تداولية النص القرآني في اهتمامه بطبيعة المتلقي، وتكييف النص وفق خصوصية –أو خصوصيات– المخاطَب به باستغلال الطاقة التعبيرية للغة العربية ، وما تُتيحه مرونتُها في تسويغ الحمولة الدلالية التي يرتهن قبولها بلَبوسها الفني، أو التداولي الذي قد تتعدَّى أهميةُ رعايته رعايةَ صِنوه البياني مما يستوجب استفراغ الجهد في استرضاء المتلقي وتأليف قلبه بهدف استمالته إلى مضمون الرسالة، وهوالموضوع الذي تناولته البلاغة لدى حديثها عن أضرب الخبر، وتوجهت إليه الجهود التداولية الحديثة ونبحث جانبا من تمظهراته في هذه المقالة.

الكلمات المفتاحية: المتلقي – التداولية –الخطاب القرآني –النص القرآني

This research aims to study some aspects of the pragmatics of the Qur'anic text in its interest in the quality of the recipient and adapting the text according to the specificity of the addressee to exploit the expressive energy of the Arabic language and its flexibility in justifying the meaning's charge which relates to its acceptance of its formal & rhetorical or pragmatic dimension.

Keywords: dominance; recipient ; quranic ; discourse.

يستمدّ المتلقي[1] أهميته التداولية ، ومحوريته في التواصل من كونه المقصودَ الأول بالخطاب، وأنَّه غايةُ الرسالة و مآلُها لأنَّ كل خطاب لا بدَّ أن يتوجه إلى الغير، و لابدَّ أن يُفهِم هذا الغير[2]، انطلاقا من حدِّ الخطاب بأنَّه : << كلُّ منطوق به موجَّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا >>[3] ، ومن ثم فإنَّ كل خطاب هو بالضرورةِ موجَّهٌ إلى متلقٍّ بعينه بقصد تبليغه أو التأثير فيه بشكل ما، ولمَّا كانت غاية الخطاب إفهامَ الغير و التأثيرَ فيه، و كان لهذا الغير الّذي هو المتلقِّي خصوصياته التي لا يشبه فيها متلقيًّا آخر، وكانت مراعاة هذه الخصوصيات أساسية لضمان التأثير والإفهام ، كان لزاما على المخاطِب أنْ يكيِّف خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم[4]، ومن هنا يبدأ إشراك المتلقي في إنتاج الخطاب، و من هنا كذلك تبدأ سلطة المتلقي على المخاطِب في تشكيل الخطاب إلى الحدِّ الذي يجعلنا << لاننشئ استفهاما أو إثباتا أو أمرا أو وعدا إلاَّ و نحن نتوجه إلى مخاطَب معيَّن>>[5] مراعين ما يجب مراعاته من خصوصيات هذا المتلقي .

وانطلاقا من أنَّ << طبيعة الحقيقة الدينية تطلب تصديق المتقبِّل أو هي تفترض تصديقه >>[6]، و من أنَّ << الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلم >>[7]، ومن أنَّ الاهتمام بالمتلقِّي مسألةٌ محورية في البلاغة العربية واللسانيات التداولية معًا[8]، فإنَّ عالمية الخطاب القرآني المفهومةَ ضمنًا من كونه الرسالة الخاتمة ، وتصريحا من نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان الآية 1 ، أو قوله جل شأنه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ سبأ الآية 28 ، أو قوله عزَّ ذكره:﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ يوسف الآية 104، أو قوله تعالى : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ ﴾ ص الآية 87 ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢ ﴾ القلم الآية 52 ، وقوله: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ ﴾ التكوير الآية 27 .

هذه العالمية التي تمتدُّ في المكان كما تمتد في الزمان ، وتتجاوز في بعض الآيات حتى البشر إلى عوالم أخرى؛ كالجن والملائكة و غير ذلك من الموجودات الطبيعية والحيوانية[9] ، تعطي صورة واضحة عن التنوع الهائل جدًّا في أصناف المتلقين الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني ، وإنْ كنَّا لا نهتم بغير المخاطَب الإنسان.

في ضوء هذه العالمية ، وفي هدي هذا التنوُّع اللاَّنهائي يجب أنْ يُفهم الخطاب القرآني الذي مازالت الأقلام تمتح من معينه و ما أدركت – بَعْدُ – عُشُرَ المعشار من معانيه و لا هي ستدرِك ،

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الكهف الآية 109 وحسبك من خطاب لا تنتهي كلماته بلْهَ المعاني .

ولقد أولى المفسرون على اختلاف مدارسهم عناية بالغة للمتلقّي تظهر في تصديرهم تفسير السورة أو الآية بسبب نزولها، وكونها مكيَّةً أو مدنيَّةً ، أو سفرية أو حضرية، أو غير ذلك ممَّا يُسهم في التعريف بالمقصود بالخطاب، ويرفع الغموض الذي قد يحيط بالدلالة أو يحول دون بلوغها.

ولأنَّ الرسول – صلى الله عليه و سلم– هو المتلقي الأوَّلُ للقرآن الكريم فقد ترجم القرآن هذه الأهمية في تضمينه أكثر من نصف آياته كلاما إمَّا موجَّها إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– مباشرة، أو يخبر عنه، أو يوجهه، أو يصفُه، أو يزكيه،[10]

ولئن كان حصر كلِّ المتلقين الذين يتوجه إليهم الخطاب القرآني مسألةً من العسر بمكان فإنَّه يمكن الإشارة إلى بعض أصنافهم؛ حيث نجد في القرآن خطابات موجهة إلى الناس كلِّ الناس، وبخاصة ما نزل منه في مكة، وقد تواتر لفظ "النَّاس" في القرآن أكثر من 179 مرة، و خاطب المؤمنين خاصةً و تواتر نداء "الذين آمنوا" أكثر من 220 مرة (بقطع النظر عن جذر الإيمان الذي تجاوز 277 مرة) ، وخاطب الكفار وتواتر ذكر " الذين كفروا "، " الكفار "، "الكافرون" 185 مرة ، وخاطب المنافقين أكثر من 28 مرة (بقطع النظر عن جذر الكلمة)، و خاطب المشركين 55 مرة وخاطب الكتابيّين 61 مرة ، و خاطب غير ذلك فئاتٍ كثيرة ممَّا حوته الحوارات والقصص، وآيات الاستدلال على القدرة والدعوة إلى الاعتبار بالأمم الغابرة، وغير ذلك مما يتعذَّر حصره .

ولأنَّ اللغةَ النمطيةَ لا يمكنها أن تفيَّ بالحاجة التواصلية لكلِّ هذه الأنواع من المتلقين فإنَّ العدول في أبنية بعض الكلمات أو صيغها طلبا لمناسبة أنواع المتلقين وخصوصياتهم يغدو حاجةً بيانيةً و تداوليةً كفيلة بتطويع اللغة و جعلها سائغة عند كل أصناف المتلقّين بما يكفل قبول رسالة الإسلام، ويُنزل كلَّ متلقٍ المنزلة التي يستحق .

وما دامت الإحاطة – و لو ذكرا – بجميع الآيات التي تتضمن عدولا تفرضه مراعاة حال المتلقي أمرا يتجاوز مساحة هذا البحث بكثير فإنَّه يتعيَّنُ ذكر بعض الآيات التي تنهض شاهدا على الفكرة، وذلك من منطلق أنَّ المتلقي لا يخلو أنْ يكون ؛ مسايرًا متفهِّما، أو مترددا مأمولا في استمالته، أو منكِرا ميؤوسا منه، و لكل صنف خطابه ؛ فالأوَّل تكفي في خطابه اللغة النمطية، ويحتاج الثاني إلى مزيد ملاطفة و ترفق، أمَّا الأخير فله المواجهة والتوبيخ .

ومن منطلق أنَّ إخراج الكلام وفق نمطية اللغة هو الأصل والقاعدة فإنَّ البحث سيتوجه إلى الإستثناء ممثلا في النوعين الأخيرين وسنعرض في ما يلي شواهد على كل من خطابي الملاطفة والمواجهة بما يكفي لإقامة الدليل على الفكرة :

خطاب الملاطفة و الترفق :

من الآيات التي تؤدي هذا الغرض و تبين عن الاعتناء بالمتلقيّ الاعتناء الذي لا مزيد عليه و بخاصة لمّا كانت تلقينًا من الله تعالى للرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يُفهم من الفعل" قُلْ" من قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سبأ الآيتان24، 25؛ حيث لَقَّنَ الله تعالى الرسول – صلى الله عليه و سلم – طريقة الدعوة التي من مقتضياتها تواضع الداعي و مسايرة المتلقي بخطابه الخطاب الذي لا يمسُّ مشاعره ولا يحطُّ من مكانته ، بل يرفع من شأنه تأليفا لقلبه و استدراجا لقبول الدعوة، وهذا ما نصَّت عليه التداولية و سبقتها إليه البلاغة العربية؛ حيث نقرأ في العبارة كلّها وفاءً من المخاطِب لمبدأ التأدب الذي يقضي << بأن يلتزم المتكلم والمخاطَب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب ما لا يقلُّ عما يلتزمان من ضوابط التبليغ >>[11]، كما يُفهم من قوله: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ حيث تنازل للخصم و أنزل يقينه – و هو كونه و من تبعه على الهدى – منزلة الشك مسايرةً لشك الخصم وإرضاءً له << و هذا اللون من الكلام يُسمَّى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المجادلُ لخصمه موجبَ تَغَيُّظٍ و احْتِدَادٍ في الجدال، ويُسمى في علم المناظرة إرخاء العنان >> [12]، ويسمَّى كذلك تجاهل العارف[13] ، و ليس هذا التجاهل إلا إرضاءً للمتلقي و استدراجا له .

وفي الآية كذلك وفاءٌ لقاعدة أخرى من قواعد "مبدأ التأدب" هي " قاعدة التشكك التي << تقضي بأن يتجنَّبَ المتكلم أساليب التقرير ويأخذ بأساليب الاستفهام كما لو كان متشككا في مقاصده بحيث يترك للمخاطب مبادرة اتخاذ القرارات >> [14]؛ ذلك أنه أخرج كلامه مخرج الشك و لم يقطع بأي الفريقين على الهدى، و أيهما في الضلال المبين.

كما أنَّ فيها توددا للخصم بمعاملته معاملة الندِّ للند، و هو مقتضى قاعدة التودد التي لا تستقيم إلاَّ إذا كان المخاطِب أعلى مرتبة من المتلقي، أو في مرتبة مساوية لمرتبته [15]، و لا يخفى أنَّ مرتبة الرسول ليس فوقها مرتبة إلاَّ مرتبة الله تعالى ، ومع ذلك فهو يتواضع للخصم ويعامله معاملة الندية .

ثم انظر إلى قوله : ﴿ لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وكيف سمَّى عمله ومن أسلم معه إجراما ، و شِرْكَ المشركين عملا ، وما في ذلك من منتهى التواضع والتسليم للخصم الذي يرى في دعوة التوحيد إجراما في حقِّ الآلهة و تنكُّرا لِمَا عليه الآباء والأجداد لأنَّ << إسناد الإجرام إلى جانب المتكلم و من معه مبنيٌّ على زعم المخاطبين >>[16]؛ فهو تسليم جدليٌّ لهم ، و<< إنْ أراد بالإجرام الصغائرَ و الزّلات التي لا يخلو منها مؤمن، و بالعمل الكفر

والمعاصي العظام >>[17]، فإنَّه مسايرة للخصم و تنازل له ثُمَّ انظر أخيرا – و هنا الشاهد – إلى صيغة الماضي في قوله " أَجْرَمْنَا " التي وُضعت في مقابل " تَعْمَلُونَ"، و فيها يبدو " إجرام " الرسول – صلى الله عليه و سلم – و من معه أمرا محقَّقًا كما هي قناعة المشركين ؛ ذلك أنَّ إسناد الإجرام إلى المتكلمين أصلاً مبنيٌّ على زعم المشركين كما تقدم و<< هذه نكتة صَوغِه في صيغة الماضي لأنَّه متحقق على زعم المشركين، وصِيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنَّهم ينتظرون منهم عملا تعريضا بأنهم يأتون عملا غير ما عملوه، أيْ يؤمنون بالله بعد كفرهم>> [18]، وهي دعوة مبطَّنة إلى الإسلام بعد أن ضمن المخاطِب استمالة المتلقي وركونه إلى الخطاب .

وفي الآية : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ البقرة الآية 143 << إنما قيل " إلاَّ لِنَعْلَمَ " وهو عالمٌ بذلك قبل كونه و في كل حال على وجه الترفُّقِ بعباده و استمالتهم إلى طاعته >>[19]؛ ذلك أنَّ الناس مازالوا حديثي عهد بالإسلام، و التوجه إلى القبلة (البيت الحرام) مما يتشرف به أهل مكة، وسائرُ العرب لأنَّ فيه إبقاءً لمجد كعبتهم، ولا أدلَّ على هذا القصد من أنَّ << بعض العرب ارتدُّوا عن الإسلام لمّا استقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيت المقدس حَمِيَّةً لقبلة العرب >>[20]، و أنَّ بعض المنافقين من اليهود كانوا يجدون في توجُّه المسلمين إلى بيت المقدس ما يُغطُّون به على اتِّباعهم المسلمين ظاهرا أمام أهلهم و شركائهم، فلمَّا حُوِّلت القبلة انكشف نفاقهم [21] لذلك فإنّ قوله: "إلاَّ لِنَعْلَمَ" معناه : إلاَّ لتعلموا أنتم إذ كنتم جهَّالا به قبل أن يكون، فأضاف العلم إلى نفسه رفقا بخطابهم لأنَّ في إسناد الخطاب إليهم بالقول " لِتَعْلَمُوا" تضمنا لوصفهم بالجهل تولّى العدول إلى ضمير المتكلم رفْعَه لما قد يفهم من أنَّ الله تعالى يُهين رسوله والمسلمين، أو أنهم منه بغير منزلة المكرَّمين؛ لذلك << أسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده >> [22] تأنيسا لهم وملاطفة، و كفى بذلك داعيا لهم إلى مزيد العبادة والتقرب منه تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ البقرة الآية 281 << قرأ الحسن "يُرْجَعُونَ "(بالياء) على معنى "يرجع جميع الناس"؛ قال ابن جني: كأنَّ الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة إذ هي مما تنفطر له القلوب فقال لهم : " واتَّقُوا يَوْمًا " ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقا بهم، وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذَّرَ منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية >>[23].

ولا شك أنَّ الرجوع إلى الله يشمل المسلمين و المشركين إلاَّ أنَّ في إسناده إلى الكفار إضافتين؛ الأولى هي التي سبقت من أنَّ الله تعالى ترفق بعباده المؤمنين ولم يواجههم بفعل الإرجاع لأنه << إنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة فقال "يُرْجَعُونَ " رِفْقًا من الله بصالحي عباده المطيعين لأمره فصار كأنه قال : " فاتقوا أنتم يا مطيعون يوما يُعذَّب فيه العاصون">>[24]، والثانية أنَّ في إسناد الفعل إلى الكفار تذكيرا لهم بحقيقة هذا اليوم من حيث كانوا كافرين به أصلا خلاف المسلمين الذين يؤمنون به ويَحيون لأجله ،و في مثل هذه الآيات يظهر الثراء الدلالي الذي تنطوي عليه القراءات .

كما أنَّ في اختلاف القرّاء في بناء الفعل " تُرْجَعُونَ " إلى الفاعل أو المفعول[25] فرقًا دقيقا في المعنى فيما يظهر من تَلَطُّفٍ مع المخاطَب في بناء الفعل للفاعل"تَرْجِعُونَ " وهي قراءة أبي عمر[26]؛ حيث يظهر الفاعل فاعلا بإرادته مُقبِلاً على فِعْلِه، ولا يخفى أنَّ هذا حالُ المؤمنين لأنهم يؤمنون بأنهم مقبلون على الجنة وعلى رِّب كريم، فيما تُظهِر قراءةُ الجمهور "تُرْجَعُونَ" (بالبناء للمفعول) الفاعلَ مفعولا به مُرجَعًا غير راجع ، وهو حال الكفار المتخوفين من عاقبة أفعالهم .

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ الأنبياء الآيتان 92 ، 93 << الأصل "تَقَطَّعْتُمْ " إلاَّ أنَّ الكلام صُرف إلى الغيبة عن طريق الالتفات كأنَّه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويُقبِّحُ عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله >>[27]، والخطاب في الآية موجَّهٌ إلى المؤمنين بدليل اختصاص الآيات السابقة بالحديث عن قصة زكرياء وابنه يحيى عليهما السلام ، ثم عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام؛ إذ قوله تعالى "إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّـتُكُمْ ... " إشارةٌ إلى من ذكر من الأنبياء والمرسلين ، ثم الأمر الموجه إلى أمَّة محمد – صلى الله عليه و سلم – في قوله "اعْبُدُونِي" دلالة على أنَّ الموحدين جميعا أمةٌ واحدة ، ولأنَّ الخطاب للمؤمنين فإنَّ في العدول عن خطابهم كفاحا بالقول "تَقَطَّعْتُمْ " إلى الغائب " تَقَطَّعُوا " تلطفًا بهم وإشفاقا عليهم من أنْ يفعلوا ما فعل غيرهم من العصاة المذنبين؛ قال ابن الأثير<< الأصل في :" تَقَطَّعُوا" تَقَطَّعْتُمْ عطفا على الأول إلاَّ أنه صرف الكلام إلى الغيبة ...>>[28] ثم أورد كلام الزمخشري بنصِّه، ومعنى ذلك أنَّ العدول في الآية حفظ للمخاطَبين، أو لصنفٍ منهم مكانته الرفيعة و منزلته الأثيرة إلى الحدِّ الذي يُصان سمعه عن أيّ مكروه .

وقد << يتوسل القرآن في كثير من المواقف إلى الخطاب النفسي بغية التأثير على المتلقي>>[29] على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ الصَّافَّات الآية 102 ؛ إذْ << التعبير بالمضارع : "أَرَى" دون "رَأَيْتُ" يوحي بأنَّ أمر الذبح ماثل في نفسه كأنه يراه الآن، وفي هذا ما يشبه الاعتذار من إبراهيم عليه السلام لابنه بأنَّه يُقدم على ما يقدم عليه لأنه أمر قويّ غالب مسيطر>>[30] ، فهو عدل عن الماضي إلى المضارع استنزالا لعذر ابنه باستحضار صورة الرؤيا إلى مسرح الخطاب بإشراك ابنه في تحمُّل هذا الخطب الجلل الذي لا قِبَلَ له بتحمُّله وحده، ذلك أنَّ مراعاة حال المتلقي واستحضار إنكاره هذا الفعل الغريب من أبيه، خصوصا وأنه ابنه الوحيد، هو الذي حيَّر إبراهيم – عليه السلام – وجعله ينطق باللغة على الوجه الذي يجعل ابنه يستسلم لأمر الله ذلك أنَّ << اللغة في الواقع تكشف في كلِّ مظاهرها وجها فكريا ووجها عاطفيا ، ويتفاوت الوجهان كثافة بحسب ما للمتكلِّم من استعداد فطري وبحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون فيها >>[31]، وأيُّ وجه للعاطفة أقوى من عاطفة أبٍ شيخ يُقبل عل ذبح وحيده بعد أن اشتدَّ عوده و بلغ معه السعي ، وهو الذي كون فيه أشد حاجة لسعي ابنه عليه.

هذه العاطفة راعتها العناية الإلهية التي لم تأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه عن طريق الوحي المباشر المعهود من الله تعالى لأنبيائه << إنما أبرز هذا الابتلاء في صورة الوحي المناميّ إكراما لإبراهيم عن أنْ يُزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأنَّ رؤيا المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملةً على رموز خفيَّة وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقِّي هذا التكليف الشاقَّ عليه وهو ذبح ابنه الوحيد >>[32]، وبذلك يكون الله تعالى قد ترفَّق بنبيِّه – عليه السلام – حين أمره عن طريق الرؤيا ، ويكون إبراهيم عليه السلام كذلك قد ترفَّق بابنه حين أشركه في الرؤيا باستحضارها عن طريق العدول إلى المضارع، وحين أشركه في القرار بمشاورته التي لم تكن من أجل الأخذ برأيه، وإنَّما من أجل أن يكون شريكا له في أجر الطاعة فهو << لم يشاركه ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده في ما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبِّره إنْ جزع، ويأمن عليه الزلل إنْ صبر وسلَّم ، وليُعلِّمه حتى يراجع نفسه فيوطِّنَها ويهوِّن عليها ويَلْقَى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله، ولأنَّ المغافصة (المفاجأة) بالذبح مما يُسْتَسْمَجُ، وليكون سنَّة في المشاورة>>[33]

وفي قوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة محمد الآيتان 22 ، 23 ؛ ملاطفة منه – تعالى – للمخاطبين حيث لم يوجِّه لهم اللَّعنة والصَّمَم والعمى ، وإنَّما عدل بكلِّ ذلك إلى الغائب لأنَّ المعنى : << هل يُتوقع منكم إنْ تولَّيتم أمورَ الناس وتأمَّرتُم عليهم لما تبين لكم من المشاهد ولاح من المخايل أنْ تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا>>[34]، و<< إنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره ليؤدِّيَهم التأمُّل في التوقع عمَّن يتَّصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسبَّبًا عنه من أولائك الذين أصمَّهم الله وأعمى أبصارهم فيلزمهم به على ألطف وجهٍ إبقاءً عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم ، ولذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة تفاديا عن مواجهتهم بذلك >>[35].

خطاب المواجهة :

هو الخطاب الذي يستهدف تنبيه المتلقي أو إفحامه أو مواجهته بالحجة حين يستشعر المخاطِب غفلةً، أو عنادا، أو صدودا؛ فيلجأ إلى جملة من الأساليب كالتنبيه والتحذير والتهديد وغير ذلك ممَّا هو معروف من الأساليب البلاغية التي من ضمنها العدول عن خطابٍ إلى خطابٍ طلبًا لهذه الغاية على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ﴾ مريم الآيات 69 ، 70، 71 ؛ ذلك أنَّ << الخطاب في " وَإِنْ مِنْكُمْ " التفات عن الغيبة في قوله " لَنَحْشُرَنَّهُمْ" و" لَنُحْضِرَنَّهُمْ"، عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة، فإنَّ ضمير الخطاب

أعرف من ضمير الغيبة، ومقتضى الظاهر أنْ يُقال: " وَإِنْ مِنْهُمْ إلاَّ وَارِدُهَا "، وعن ابن عباس أنّه كان يقرأ "وَإِنْ مِنْهُمْ، وكذلك قرأ عكرمة وجماعة >>[36].

والآيات مُفتَتَحة بالقسم – خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم " فَوَرَبِّكَ " – في ما يُشبه التعهد بالانتقام مِمَّن يُنكر البعث والحشر المفهوم من قوله قبلها مباشرة "ويقول الإنْسَانُ أَإِذَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا؟ " حيث سردت الآيات ما يُفعل بهؤلاء الناس يوم القيامة بضمير الغيبة ستَّ مرات (لَنَحْشُرَنَّهُمْ ، نُحْضِرَنَّهُمْ ، جُثِيًّا ، أَيُّهُمْ ، الَّذِينَ ، هُمْ) ثمَّ عدل السياق عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: " وَإِنْ مِنْكُم إلاَّ وَارِدُهَا "، وهو<< التفات إلى الإنسان تعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهما "وَإِنْ مِنْهُم ..." >>[37]، والمعنيُّ بالخطاب على الرأي الأول[38] الكفارُ الذين أنكروا البعث << فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها >> [39]؛ لذلك فإنَّ العدول إلى خطابهم هو مواجهة لهم قصد التهديد والتخويف خصوصا وأنَّ في الآية قَسَمًا مُضمرًا ؛ أي << والله ما منكم من أحد إلاَّ واردها >> [40]وحتى وإنْ لم يكن في الآية تضمين قسم فإنَّ ورودها في أسلوب القصر يؤيد توجهها إلى التهديد والوعيد لِمَا في أسلوب القصر من معنى الإحاطة وانعدام فرصة الإفلات، وكلُّ ذلك يصبّ في معنى المواجهة والتهديد.

وفي قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ مريم الآيات 88 ، 89 ، 90 ؛ كذلك عدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله :"جِئْتُمْ" ؛ قال ابن الأثير إنّه << حصل لفائدة حسنة هي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرُّض لسخطه، وتنبيها لهم على عظيم ما قالوه ، وكأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكِرا عليهم وموبِّخا لهم >>[41] ؛ ذلك أنَّ << المقصود من حكاية قولهم ليس مجرَّد الإخبار عنهم أو تعليم دينهم ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه >>[42]؛ فعدل إلى مواجهتهم بِجُرمِهم خِطابًا وتوبيخا، والذي يميّز لغة الخطاب – وهو من الأهمية بمكان – ما يرافق خطاب الحاضر من لغة الإشارة التي تعين اللسان على حمل المعاني وأدائها بأكثر حدة ومباشرة ، وقد نقل إلينا ابن جني شاهدا على ذلك في حديثه عن ذلك الشيخ الذي قال: "إني لا أحسن كلام الناس في الظلام" كما أنَّ خطاب الحاضر يمكِّن من تنغيم الخطاب بنبْرة التهديد والوعيد؛ ولا يخفى أنَّ التنغيم حامل آخر من حوامل المعنى.

ونجد في هذه الحركة العدولية استغناءً عن ضمير الغيبة، الذي يُعبّر عن مشهد غائب يخفِّفُ غيابُه من حدَّة وقْعه، إلى ضمير الخطاب الذي يستحضر هذا المشهد الفظيع (دعوى الولد لله) إلى مَرآة العين ويجعل المعنيَّ بالكلام حاضرا شاهدا يتلقَّى التوبيخ مباشرة وفي ذلك تخويف للآخرين أيضا، ودلالة التوبيخ والمواجهة تعتضد بذكر لفظ "الرحمن" في صدر الآية وهو الاسم الذي ينكرونه ولا يعترفون به لذلك فإنَّ << ذكر "الرحمن" هنا حكاية لقولهم بالمعنى وهم لا يذكرون اسم الرحمن ولا يُقرُّون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا "؛ فهم إنَّما يقولون "اتخذ الله ولدا " كما حكى عنهم في آياتٍ كثيرة منها آية الكهف، فذكر"الرحمن" هنا وَضْعٌ للمرادِف في موضع مرادِفه ، لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه ... والخطاب

في "لَقَدْ جِئْتُمْ" للذين قالوا: "اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا" فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد ... فلا يحسن تقدير "قُلْ: لَقَدْ جِئْتُمْ" >>[43] لأنَّ هذا التهديد لا يؤديه عن الله أحد لذلك تولَّى – تعالى – مباشرته بنفسه لأنَّ الإساءة موجَّهةٌ إليه رأسا، ولأنَّها فظيعة إلى الحدِّ الذي يستدعي إلجام القائلين بها خطابا لا حكاية، كيف وهي" تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهَا وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً " ؟

وفي قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ التحريم الآية 04 << خطابا لحفصةَ وعائشةَ على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما >>[44] إثر تظاهرهما على النبيِّ – صلى الله عليه وسلم[45] – بالقول << إنِّي أجد منك ريح المغافير بعد أنْ علمتا أنه شرب عسلا عند زينب بنت جحش، وكان – صلى الله عليه وسلم- يشتد عليه أنْ يُوجدَ منه ريح >>[46]، أو حين أفشت حفصة سرَّهُ إلى عائشة، فكان في توجيه الخطاب إليهما عتابٌ صريح بعد أن أَطْلَعَ الله – تعالى – نبيَّه على تواطئهما عليه نصرا له وتأييدًا، وهو << إنَّما عرَّفها بذلك ليوقفها على مخالفتها واجبَ الأدب في حفظ سرِّ زوجها ... لأنَّ إفشاءها سرَّ زوجها زلَّة خُلُقِيَّةٌ عظيمة حجبها عن مراعاتها شدَّةُ الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها >>[47]، فكان العدول عن الغيبة إلى الخطاب من أجل مواجهتها بالعتاب الذي شمل من أصغت إليها (عائشة) في إشارة إلى ما كان يتوجب عليها من تنبيه حفصة إلى خطئها بدل تشجيعها بالإصغاء والتظاهر على زوجهما – صلى الله عليه وسلَّم ورضي عنهما – ولهذا الخطاب خصوصيتُه لأنَّه موجَّهٌ إلى أعرف الناس بخطاب الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذْ إنَّ بيوتات أمَّهات المسلمين رضي الله عنهنَّ هي مهبط الوحي ووعاؤه الأول ، ولعلَّ في البدء بفعل التوبة (إِنْ تَتُوبَا ...) وتأخير الاختيار الثاني (وَإِنْ تَظَّاهَرَا عليه ...) جبرا لخواطرهنَّ وإشارةً إلى أنَّ الاختيار الأول هو الذي سيأخذن به رضي الله عنهنَّ جميعا .

وقد يُطلب تنبيه المتلقي أو عتابه أو تعنيفه ... بعكس الطريقة السابقة وذلك بترك الخطاب إلى الغيبة كأن يُصوَّر المتلقي مفرطا في المعصية غارقا في الخطايا فيُحكى حاله إلى متلقٍّ آخر بأسلوب يجمع بين التنفير من وضعه المشين، والترفُّع عن خطابه، بإنزاله منزلة من لا يَرقى إلى الخطاب استصغارا وتحقيرا ؛ قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران الآية 83 << قرأ الجمهور "تَبْغُونَ" بتاء خطابٍ لأهل الكتاب جارٍ على طريقة الخطاب في قوله آنفا "وَلاَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ"، وقرأه أبو عمر وحفص ويعقوب بتاء الغيبة ، فهو على التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجيب من أهل الكتاب >>[48] لأنَّهم وضعوا أنفسهم في هذه المكانة حين استنكفوا عن دين الإسلام الذي أسلم له من في السماوات والأرض طوعا وكرها ؛ وإذَنْ فإنهم غير خليقين بالخطاب مواجهةً ؛ لذلك قال بعدها: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ »

فيإعراضٍ واضحٍ عن اختصاصهم بالخطاب وتكليفٍ للرسول – صلى الله عليه وسلّم – بأنْ يبلّغهم والمسلمين ما أنزل الله على أنبيائه محمد، وإبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ، وموسى وعيسى، وسائر النبيئين عليهم السلام، ثُمَّ لا يَهُمُّ بعد ذلك أمرُ هؤلاء المعرضين الذين ترفَّع عن خطابهم صراحة مرّة ثانية في قوله بعدها " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين " لأنهم المعنيون أوّلا بهذا الخطاب .

وفي قوله تعالى: « هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾» يونس الآية22 ؛ عدول عن الخطاب إلى الغيبة قال فيه الزمخشري :<< فإنْ قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة قلتُ المبالغة كأنَّه يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح >>[49]، ورأى ابن عاشور أنَّ الآية << لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلمَّا تهيأت للانتقال إلى ذكر الضرَّاء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يُخلِصه إلى الإفضاء إلى ما يخصُّ المشركين فقال "وَجَرَيْنَ بِهِمْ" على طريقة الالتفات؛ أي "وَجَرَيْنَ بِكُمْ " >>[50]، فيكون في العدول إلى الغيبة تشهيرٌ بهم لتقديمهم أنموذجا للجاحد الذي لا يَذْكُر الله إلاَّ عند الشدَّة، وإذا هو نجا منها نسي ذكر الله، فهو حالة لصنفٍ من الناس ينبغي أنْ يَعلَمها المخاطبون ليحذروا أن يقعوا فيها، ويورده مورد الحكاية للاعتبار ، والنكتة تجاوزهم إلى غيرهم إذْ لم يعد أمرُهم ذا أهميةٍ لما بدا منهم من نكث العهود حين قالوا " لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين"، ولكنهم سرعان ما نقضوا عهدهم "فَلَمَّا أَنْجَاهُم إِذَا هُم يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وينتقل السياق مرَّة أخرى إلى الخطاب في قوله " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ " تعريفا لهم بأنّهم إنَّما يضرُّون أنفسهم ويهلكون ذواتهم، وأنَّ بغيهم لم يكن ليبلغ أنْ يَضُرَّ الله بشيء .

وكذلك قوله تعالى: « إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ » النبأ الآية 40 ؛ عدل السياق عن الخطاب إلى الغيبة ذلك أنّ قوله تعالى: " إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ " يقتضي أن يكون الكلام بعده تابعا له فيكون "يَوْمَ تَنْظُرُونَ" و"تَقُولُونَ" ، لكنه جاء على غير ذلك فقال تعالى : "يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ" و<< "المَرْءُ" هو الكافر لقوله تعالى:"إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ"، و"الكافر" ظاهرٌ وُضع موضع الضمير لزيادة الذمّ>>[51] فيجتمع في ذمّ الكافر ذكرُه بالصفة نصًّا عل إهانته، وتحييدُه من مسرح الخطاب بذكره غائبا غيرَ مخاطَبٍ .

و الـذي نسـتفيده مـن هـذه النمـاذج هـو أنَّ الخطـاب القرآنـي لـم يغفـل أحـوال المتلقـين المختلفـة وأوضـاعهم المتباينـة، ولا هـو علـى سـمت واحـد مـع كـل المخـاطبين، بـل هـو علـى العكـس مـن ذلـك تمامـا؛ حيـث اسـتنفد الإمكانـات اللسـانية والتداوليـة للغـة، واسـتفرغ طاقتهـا التعبيريـة بمـا يُمهِّـد للرسـالة طريقهـا ، و يحفـظ لكـل متلـقٍ خصوصـيته التـي بـدت فـي كثيـر مـن النمـاذج المـتحكِّمَ الأول فـي بنـاء الـنص والعـدول بالخطـاب عـن أصـل القاعـدة الأمـر الـذي يكشـف ارتهـان الرسـالة بقنـاة اللغـة؛ حيـث يُعـدُّ الـتحكم فـي انزياحاتهـا ومجازاتهـا ومـا تتحملـه مـن أنـواع متعـددة مـن العـدول عـن أصـل الوضـع بتسـخيرها لخدمة الرسالة بتأليف قلب المتلقي ومراعاة أحواله بريدا مضمونا للمعاني والمقاصد.

الهوامش:

[1] – آثرت مصطلح" المتلقي" على "المخاطَب" لما في لفظ "المتلقي" من دلالة الفاعلية لدى المقصود بالخطاب يستمدُّها من صيغة اسم الفاعل في مقابل اسم المفعول "المخاطَب" الذي يبدو من صيغة اسم المفعول موجَّهًا إليه الخطاب غيرَ مشارك في صناعته ،خلاف ما تقتضيه حركية اللغة في سياقاتها المختلفة وما يقتضيه تداول اللغة .

[2] – ينظر: طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 3 ، 2013 ، ص 214 .

[3] – نفسه : ص 215 .

[4] – ينظر: المسدي ؛ الأسلوبية والأسلوب ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت و دار الكتب الوطنية ، بنغازي، ط5 ، 2008، 63 ، 64 ، و هنريش بليش ؛ البلاغة والأسلوبية – نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، تر محمد العمري دراسات سال ، الدار البيضاء 1989م ، ص:161 ، 164 .

[5] – صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ،دار صفحات للدراسة و النشر دمشق ط1 ،2011 ، ص 103 .

[6] – نفسه : ص 133 .

[7] – خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، بيت الحكمة ، العلمة ، الجزائر ، ط 2 ، 2012، ص 143 .

[8] – نفسه : الصفحة نفسها.

[9] – في القرآن آيات كثيرة تخاطب الملائكة والجنّ ، والسموات والأرض ... ؛ كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية :44 ، أو قوله في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ الآية : 10 ، أو قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ

فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ الرحمن ؛

الآيات :33، 34، 35، 36 ، 37 ، 38 ، 39، 40 ، وغير ذلك من الآيات التي يتوجه الخطاب فيها صراحة إلى الموجودات الكثيرة غير الإنسان ، وإن كان فيه توجه ضمني من خلالها إلى الإنسان من حيث كان المخاطب الأوّل بالقرآن.

[10] – محمد مصطفوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، بيروت ، ط 1 2009 ، ص 291 .

[11] – طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان ، ص : 240 .

[12] – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر و التوزيع ،تونس ، د . ت : 192/9 ، وينظر: الزمخشري :الكشاف ، شرحه وضبطه يوسف الحمادي ، مكتبة مصر ، الفجالة ، مصر،2000 م 606/3 .

[13] – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 192/9 ، وينظر : إنعام نوال عكاوي ؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ، لبان ،ط2 ، 1471هـ – 1966م ،؛ حيث أورد المعجم استشهاد الرازي بالآية نفسها على " تجاهل العارف" الذي عرفه العسكري بقوله: << هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا >> ، وجاء في المعجم كذلك أنَّ ابن الأثير سمَّى هذا النوع " تجاهل العارف" ، وذكر له نوعين حيث قال: << هذا الباب له اسمان ؛ أحدهما تجاهل العارف ، والآخر يقال له الإعنات ؛ فالأوّل يطلق على ما يأتي من نوعه في النظم والنثر ، وأما الثاني فيطلق على ما يأتي من هذا النوع في الكتاب العزيز أدبا مع الآيات الكريمة >> ، وقد << جعل الزركشي لإخراج الكلام مخرج الشكِّ بابا خاصا وقال: إخراج الكلام مخرج الشكِّ في اللفظ دون الحقيقة لضربٍ من المسامحة وحسْم العناد كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ ، وهو يعلم أنه على الهدى وأنهم على الضلال ، لكنه أخرج الكلام مخرج الشك تغاضيا ومسامحة ولا شكَّ عنده ولا ارتياب >> ، نفسه: ص 50 ، وينظر: الطبري ؛ تفسير الطبري:، دار الفكر ، بيروت 1405هـ ، 14/2 ، وأجد لهذا النوع صدى في "مبدأ التأدب" الذي ذكرته روبين لاكوف وترجمه الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه "اللسان والميزان" ص : 240 ، وذلك في قاعدة التشكك التي توجب على المتكلم أن يُخرج كلامه مخرج الشكّ مسايرة للمتلقي وتوددا إليه .

[14] – نفسه ؛ 241 .

[15] – المصدر السابق.

[16]– الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 194/9 .

[17]– الزمخشري ؛ الكشاف: 607/3 .

[18] – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 194/9 .

19 – الطبري ؛ تفسير الطبري: 14/2 .

20 – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 23/1 .

21 – نفسه: الصفحة نفسها .

22 – الزمخشري ؛ الكشاف : 184/1 .

23 – القرطبي ؛ تفسير القرطبي، تح أحمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط 2 ،1372هـ ، 376/3 .

24 – ابن جني ؛ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تح علي النجدي ناصف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، د.ط ، 1386 هـ : 145/1 .

25 – الداني ؛ التيسير في القراءات السبع ، تح محمد بيومي، دار الغد الجديد ، القاهرة ،ط 1 ، 1427 هـ– 2006 م: ص 91 .

26 – نفسه : الصفحة نفسها .

27 – الزمخشري ؛ الكشاف: 205/3.

28 – ابن الأثير ؛ المثل السائر تح محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م : 12/2 ، 13 .

29 – محمد مصطفوي ؛ أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره : 332 .

30 – عبد الحليم حفني ؛ أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط3 ، 1995 م ؛ ص 164 ، 165 .

31– Charles Bally ; traité de stylistique française , paris , klincksieck , 3eme éd 1951, 1/12 .

32– الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير ، 151/9 .

33 – الزمخشري ؛ الكشاف: 687/3 .

34 – نفسه : 219/4 ، وينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي: 245/16 .

35 – إنعام نوال عكاوي ؛ المعجم المفصل في علوم البلاغة : ص 50 .

36 – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير 149/7 .

37 – الزمخشري ؛ الكشاف : 3/ 120 ، وهو على أحد الرأيين و الرأي الآخر << هو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور فإن أريد الجنس كلّه [جنس الناس] ؛ فمعنى الورود دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم >> نفسه : الصفحة نفسها.

38 – هو الذي فُهِمَ من لفظ الخطاب في "منكم" ، الكفارَ خاصة ،، ينظر في ذلك : الكشاف: 120/3 ، و البغوي؛ تفسير البغوي ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1423 ، هـ –2002 م : 808 .

39 – البغوي ؛ تفسير البغوي : 808 .

40 – نفسه : الصفحة نفسها.

41 – ابن الأثير ؛ المثل السائر : 5/2 .

42 – الطاهر بن عاشور ؛ الحرير والتنوير: 169/7 .

43 – نفسه: 170/7

44 – الزمخشري ؛ الكشاف : 422/4 .

45 – << روي أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلَّم – خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : أكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي ، وأُبَشِّرِكِ أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وقيل خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك ، واستكتمها فلم تكتم ، فطلَّقها ، واعتزل نساءه تسعا وعشرين ليلة ببيت مارية ، وروي أنَّ عمر (ض) قال لها : لو كان في آل الخطاب خيرٌ لما طلَّقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال راجعها فإنَّها صوَّامة قوامة ، وإنَّها لمن نسائك في الجنة ، وروي أنه شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنَّا نشمّ منك ريح المغافير ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكره التفل فحرَّم العسل >> ، نفسه 420/4 .

46 – البغوي ؛ تفسير البغوي : 1326 .

47 – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 353/11 ، 354 .

48 – نفسه : 300/1 ، 301 ، وينظر: الداني ؛ التيسير في القراءات السبع: ص 94 .

49 – الزمخشري ؛ الكشاف : 356/2 .

50 – الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير : 136/5 .

51 – الزمخشري ؛ الكشاف : 536/4 .